◆ أثر مدينة تاهرت الرستمية في نشر الإسلام والعربية بين بربر المغرب الأوسط

د. نور الهدى بوخالفة

ملخص:

يهتم هذا الموضوع بدراسة أثر مدينة تاهرت الإباضية وجبل نفوسة في نشر الإسلام، باعتبارها مدينة تقع في منطقة خصبة تتوسط مجموعة من قبائل البربر. أقبلت عليها فاتسع عمرانها وامتدت خططها، وازدهرت تجارتها وتوسعت صلتها بالبربر من المغربين الأوسط والأقصى من جبل نفوسة. ومما زاد في تعريب البربر هجرة فئات عربية إلى تاهرت، أهمها عناصر كوفية من العراق حتى أطلق على تاهرت «عراق المغرب».

Résumé:

Cette étude a pour but de découvrir le rôle de la ville de Tahert l'Ibadite et de la montagne de Nefoussa sur l'expansion de l'Islam et de la langue arabe.
La situation géographique de la ville, ses terres fertiles, ainsi que sa position économique et sociale ont permis d'attirer les tribus berbères qui l'entouraient, et peu à peu la ville devint un grand centre urbain. On note aussi une grande immigration des arabes et surtout les Irakiens de Koufa, qui ont permis à la langue de se répandre entre les tribus berbères.

كان الموقع الجغرافي عاملا من العوامل التي ساعدت على نشر الإسلام والعربية بين القبائل البربرية في المغربين الأوسط والأقصى وسجلماسة.

فقد بنى عبد الرحمن بن رستم معسكره في مكان تسكنه قبائل بربرية من مراسة وصنهاجة، ففاوضهم عبد الرحمن بن رستم على البيع فأبوا، فاتفق معهم أن يؤدوا إليه الخراج من الأسواق، وأباح لهم أن يبنوا المساكن فقبلوا فاختطوا وبنوا(1).

وبهذا لم تبعد العاصمة الإباضية الجديدة عن تاهرت القديمة سوى تسعة كيلومترات، وكانت تاهرت هذه قريبة من جبل ونشريس الذي كانت تسكنه قبائل بربرية شتى(2).

وكانت تاهرت القديمة آهلة بالسكان(3) وتقع بجوار منطقة سهوب شاسعة صالحة للرعي، مما ساعد على الاختلاط والتمازج بين النفر الرستمي المستعرب المتمثل في معسكر عبد الرحمن بن رستم وبين القبائل الساكنة حوله، مما جعل تاهرت الجديدة مركز اتصال مستمر بين البدو والرحل وسكان القرى، وسهل بذلك عملية التعريب بحكم الاختلاط الناجم عن الجوار والتبادل التجاري(4).

ولم تكن العاصمة الجديدة في المنطقة كثيفة بالسكان فحسب، بل كانت في منطقة خصبة أيضا تشجع على الاستمرار إذ تقع تاهرت الجديدة على نهرين، نهر مينة الذي يمر بها ويصب في وادي الشلف، ونهر آخر يجري من عيون تتجمع مياهها ويسمى تاتش(5)، فكان لهذين النهرين دور كبير في إحياء الزراعة وازدهارها وفي استقرار البدو الرحل حولها وتعريبهم.

ولم تمر فترة طويلة على نزول الإباضية في هذا المكان حتى اتسعت الحركة العمرانية (في عهد عبد الرحمن بن رستم) فشرعت القبائل البربرية في البناء والعمارة، وإحياء الموات وغرس البساتين وإجراء الأنهار واتخاذ الأرجاء والمستقلات، مما ساهم في توسيع البلدة وتوسع مرافق التنزه فيها(6).

وكان سكان المدينة وضواحيها في بداية تأسيس الدولة الإباضية يقتصرون على القبائل البترية التي ساندت سلطة عبد الرحمن بن رستم(7)، وكان إقبالها على الاستقرار بعد أن كانت غالبيتها بدوا رحلا؛ خطوة كبيرة نحو تعريبها وتثقيفها.

فقد استقرت لماية ولواته جنوب تاهرت وغربيها. كذلك فعلت مطماطة وزناتة ومكناسة(8)، بالإضافة إلى قبائل أخرى كانت تنزح إليها وتقيم حولها في فصل الربيع لتوافر المرعى. ويذكر ابن الصغير أسماء هذه القبائل قائلا: «إن قبائل مزاتة وسدراتة، وغيرهم كانوا ينتجعون من أوطانهم التي هم بها من المغرب، وغيرها في شهر الربيع إلى مدينة تاهرت وأحوازها لما حولها من الكلأ وغيره»(9).

أما نفوسة فكان لها عدة أحياء تسمى باسمها داخل مدينة تاهرت مثل عدوة نفوسة ودرب النفوسيين(10). وحين تكلم اليعقوبي عن هذه القبيلة البترية يقول إنهم إباضية كلهم(11)، كما ذكر ما يشبه ذلك عن قبيلة مزاتة(12).

وكان لهذه القبيلة البترية المعتنقة الخارجية(13) والمستقرة في المدينة أو النازحة إلى ضواحيها في أيام الربيع، دور هام في حياة تاهرت السياسية والدينية. فقد طلب رؤساء هذه القبائل من الإمام عبد الوهاب أن يعزل قاضيه وصاحب بيت المال وصاحب الشرطة وحين أبى حصلت الفتنة(14).

وهذا التفاعل السياسي بين المدينة والريف يشير إلى أن حركة التعريب كانت تسير في وقت واحد في المدينة والريف.

وبالإضافة إلى القبائل البترية، نزحت جماعات عربية من الأمصار الإسلامية إلى تاهرت فكانت لها خطط، وشجعها على ذلك ازدهار المدينة الاقتصادي، وينتظر أن يكون لهذه البيوت العربية دور هام في حركة التعريب.

وقد شجع بنو رستم هذه الهجرة العربية، وبنى العرب الدور والمساجد إذ يقول ابن الصغير في ذلك: «وأتتهم (يعني الرستميين) الوفود من كل الأمصار وأقصى الأقطار فقال ليس أحد ينزل بهم من الغرباء إلا استوطن معهم وابتنى بين أظهرهم لما يرى من رخاء البلد وحسن سيرة إمامه وعدله في رعيته وأمانه على نفسه وماله، حتى لا ترى دارا إلا قيل هذه لفلان الكوفي، وهذه لفلان القروي، وهذا مسجد القرويين ورحبتهم، وهذا مسجد البصريين وهذا مسجد الكوفيين»(15).

وأوسع هذه الهجرة كانت هجرة الكوفيين حتى أصبح يطلق على تاهرت عراق المغرب(16). وحين زار اليعقوبي تاهرت وصفها بأنها مدينة عظيمة جليلة المقدار تسمى عراق المغرب ولها أخلاط من الناس(17).

وقد عرفت المدينة في أول أمرها وحدة المذهب وحسن سيرة الإمام في رعيته حتى طار صيته في المغرب والمشرق(18)، وكان هذا عامل ازدهار للتجارة والاقتصاد وعونا كبيرا على تثبيت الإسلام والعربية في المغرب الأوسط والأقصى.

وقد ساعد إباضية البصرة هذه الدولة الفتية فأرسلوا إليها الوفود والأحمال من الأموال(19). ويقول ابن الصغير في ذلك: «ثم لم تزل الرسل تختلف وتطلع الأخبار عن الأحوال والبلد زادت عمارتها في ذلك بما يجب وأهل الصدقة على صدقاتهم يخرجون في أوان الطعام فيقيضون أعشارهم هلال كل عام من الشاة والبعير ويقبضون ما يجب على أهل الصدقات لا يظلمون ولا يظلمون»(20).

وكان من الطبيعي أن تحصل الدولة الرستمية على هذا التأييد فقد اعتبرها إباضية البصرة نواة لدولة إباضية كبرى تضم المشرق والمغرب(21). كما اطمأنت القبائل البربرية التي اعتنقت المذهب الإباضي إلى أن المبادئ التي آمنت بها وثارت مرارا من أجلها قد طبقت في هذه الدولة فالتفت حولها وآزرتها. والأهم من ذلك بالنسبة لتاريخ المغرب الإسلامي في القرن الثاني للهجرة هو ميلاد المغرب الأوسط الإسلامي.

وقد اشتهرت مدينة تاهرت بالأمن على النفس والمال فهاجر إليها التجار من المغرب والمشرق(22). كما أصبحت ذات شأن في دائرة التبادل التجاري بين بلاد السودان والمغرب والمشرق وسواحل البحر الأبيض المتوسط، ويصف ابن الصغير هذا النشاط التجاري قائلا: «واستعملت السبل إلى بلاد السودان وإلى جميع البلدان من المشرق والمغرب بالتجارة وضروب الأمتعة فأقاموا على ذلك سنتين أو أقل من ذلك أو أكثر والعمارة زائدة والناس والتجار من كل الأقطار تاجرون»(23).

وأبدى الأئمة الرستميون اهتماما كبيرا بالتجارة، فقد أخرج الإمام أبو اليقظان ابنه أبا حاتم في جيش مع وجوه زناتة ليحموا قوافل قد أقبلت من المشرق وفيها أموال لا تحصى، قد خافوا عليها من قبائل زناتة(24).

وينتظر أن ينتشر التعريب في المناطق الواقعة على الطرق التجارية، وكانت تاهرت ملتقى مهما للقبائل الرحل التي كانت تأتي لبيع ماشيتها ولشراء البضاعة المستوردة من بلاد السودان والمشرق(25). وينتظر أن يرافق هذا الاتصال التجاري توسيع نطاق العربية.

وبلغت تاهرت أوج ازدهارها الاقتصادي والتجاري أيام الإمام أفلح بن عبد الوهاب، فزاحم التجار والقادمون من افريقية من عرب وغيرهم أهل المدينة فاتسعت وشدت إليها الضواحي والأرياف المجاورة لها(26). كانت هذه الصلات من العوامل التي تسرع في عملية التعريب في المدينة والريف في وقت واحد.

ولم يكن استقرار العرب بين الإباضية العامل الوحيد في تنشيط حركة التعريب، فهناك القوافل السنوية التي تخرج إلى الحج وتعتبر عاملا مهما في عملية التعريب. وكانت جموع نفوسة تخرج إلى الحج نساء ورجالا وأطفالا(27)، وطبيعي أن تكون هذه الرحلة الطويلة والإقامة في الأمصار العربية من العوامل التي تساعد على تعلم اللغة العربية، لغة القرآن والأحكام الشرعية.

وكان التعرض لقوافل الحجاج والتجار العرب سبيلا لتعلم المبادئ الأولية للكتابة. وكمثل لذلك ما جاء في ترجمة عمر بن يمكتين (ت سنة 144هـ)، عامل أبي الخطاب المعافري على سرت، قال الشماخي: «إن أول من علم القرآن بجبل نفوسة عمر بن يمكتين علمه بمنزل يقال له إيفاطمان. قال: ويقال إن عمر ابن يمكتين إنما تعلم القرآن بطريق مغمداس يتلقى فيها السابلة والمارة من المشرق فيكتب عنهم لوحة من القرآن، وينصرف، فإذا حفظه رجع إلى المحجة، فيكتب من المارة والرفاق كذلك دأبه حتى حفظ القرآن وتعلم العلم... قال: وذلك لحرصه على طلب العلم والقرآن في أول الإسلام وقلة المعلمين البلدان(28).

وهذا يبين عدم وجود كتاتيب في جبل نفوسة في النصف الأول من القرن الثاني للهجرة، لذا لجأ المستعربة من الأهالي إلى طرق أخرى كالتربص للقوافل وبذل جهود فردية؛ ومكن الوضع أخلاق هجرة، إذ ظهر عدة علماء من البربر في النصف الثاني لهذا

القرن. حدّث أبو ربيع سليمان بن يخلف أن عبد الرحمن بن رستم لحقه بسوق أجيج ستون شيخا من مشائخ الإباضية في طرابلس(29).

وأصبح جبل نفوسة مركزا هاما للثقافة الإباضية(30)، فقد كان أبو عبيدة الجناوني عامل الإمام عبد الوهاب قد أخذ العلم عن أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة بالبصرة، وأحسن ثلاث لغات: البربرية والعربية والكانمية (لغة كانم ببلاد السودان)(31). كما مكث الإمام عبد الوهاب سبع سنين بجبل نفوسة يعلم فيها مسائل الصلاة(32).

وخلاصة القول أن الدولة الإباضية في المغرب الأوسط استمرت قرابة مائة وخمسين سنة (144-296هـ)، وكانت عاصمتها تاهرت مركزا مهما للدراسات الإسلامية وفقا لمذهب الخوارج الإباضية. وبفضل تسامح الأئمة استطاع علماء أهل السنة القدوم لجدال علماء الإباضية في كل مسائل العقيدة والشريعة. ومن هذه الناحية كانت تاهرت شأنها شأن القيروان وتونس، حاضرتي العلم على مذهب أهل السنة، مدرسة لجلب روح الجدل والمناقشة والتدقيقات، وأخذ الإباضية في تلقي العلم بحماسة وأسسوا بدورهم مدرسة كانت انطلاقة نحو تعريب المغرب الأوسط والأقصى.

الهوامش:

(1) – ياقوت، معجم ج2، ص 9، دار صادر بيروت، 1979.

(2) – الإدريسي، صفة، ص 85، قطعة مأخوذة من كتاب نزهة.

(3) – ابن عذارى، البيان، ج1، ص 24، تحقيق ومراجعة ج.س. كولان وليخي بروفنسال، دار الثقافة بيروت، لبنان، بلا تاريخ.

(4) – ابن خلدون، ج6، ص 247، العبر، نشر دارالفكر بيروت 1979 وطبعة بيروت 1961.

(5) – مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، ص 178، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، الاسكندرية، 1958.

(6) – ابن الصغير، تاريخ الأئمة الرستميين بتاهرت، ص 12، نشر موتيلنسكي، مع ترجمة فرنسية، الجزائر 1905.

(7) – ابن خلدون، العبر، ج6، ص 225.

(8) – ابن خلدون، العبر، ج6، ص 236.، وانظر البكري، وصف، ص 67، وياقوت، معجم، ج2، ص 8.

(9) – ابن الصغير، تاريخ الأئمة، ص 17.
(10) – نفس المرجع، ص 37-38.
(11) – اليعقوبي، البلدان، ص 346، الطبعة الثانية، مطبعة بريل، 1892.
(12) – نفس المرجع، ص 344.
(13) – ابن خلدون، العبر، ج6، ص 115، 231.
(14) – ابن الصغير، تاريخ الأئمة، ص 17، 18.
(15) – نفس المرجع، ص 13.
(16) – اليعقوبي، البلدان، ص 353.
(17) – نفس المرجع، ص 353.
(18) – ابن الصغير، تاريخ الأئمة، ص 15.
(19) – نفس المرجع، تاريخ الأئمة، ص 15.
(20) – نفس المرجع.
(21) – انظر الرسائل التي كان يبعثها أبو عبيدة من البصرة إلى الخوارج في المغرب في أبو زكرياء، السير، ص 59 تحقيق وتعليق اسماعيل العربي، المكتبة الوطنية، الجزائر 1979.
(22) – ابن الصغير، تاريخ الأئمة، ص 13.
(23) – نفس المرجع، ص 13.
(24) – نفس المرجع، تاريخ الأئمة، ص 50.
(25) – G. Marçais, La revue africaine, p. 30.
(26) – ابن الصغير، تاريخ الأئمة، ص 26، 27.
(27) – نفس المرجع، ص 27، 46، 47 وانظر الدرجيني، طبقات، ج2، ص 325 مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر 1973.
(28) – الشماخي، السير، ج1، ص 27، طبعة حجرية القاهرة 1884.
(29) – أبو زكرياء، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص 64.
(30) – نفس المرجع، ص 67، 73 وانظر فهرس تراجم علماء نفوسة في الدرجيني، طبقات من الجزء الثاني.
(31) – الدرجيني، طبقات المشائخ بالمغرب، ج2، ص 291 وانظر ج1، ص 71.
(32) – أبو زكرياء، السير، ص 77.